أثر التعسف السياسي والتطرف الديني علي الآثار الإسلامية في ليبيا

د. مصطفي فرج علي البركي•

شهدت الآثار الإسلامية في ليبيا إبان حكم النظام السابق منذ نهاية سبعينيات القرن الماضي - عديد من الانتهاكات ومظاهر التعدي السيئ ، وقد تنوعت هذه الانتهاكات ما بين هدم متعمد لبعض المباني الدينية الأثرية ، وهدم بعض المباني الأخرى لأسباب قد تكون أمنية .
وبعد زوال هذا النظام الذي كان يحكم قبضته على جميع الأمور في البلاد بما فيها الموروث الحضاري ،شهدت البلاد موجة من أعمال الهدم والإزالة للكثير من الأضرحة في كل أنحاء ليبيا ، وقد شملت أعمال الهدم بعض الأضرحة الأثرية والمسجلة في مصلحة الآثار كمواقع أثرية .
ويناقش هذا البحث هذه الإشكالية ، وسوف نتناول أمثلة من المباني التي تمت إزالتها ، بما في ذلك عرض صورها ومخططاتها التي أخذت لها قبل تغييبها ، وهي محفوظة في عدة مكتبات خاصة يمتلكها بعض المهتمين بالتراث ، أو في الأرشيف الايطالي ، الذي وثق العديد من الآثار والمباني الإسلامية في ليبيا .
وتنقسم دراسة هذا الموضوع إلى جزأين أساسين هما : آثر التعسف السياسي ، و آثر التطرف الديني .

أولاً: أثر التعسف السياسي :

يُعْنَى هذا المحور بعرض الأسباب والدوافع السياسية التي أدت إلى إزالة ، أو تهدم جزء أو كل بعض من المباني الأثرية ذات الصبغة الدينية، وذلك من خلال عرض أمثلة واقعية لبعض المنشآت التي أزيلت أو هدمت لأسباب سياسية ، كما طال هذا الهدم ضريح شيخ الشهداء عمر المختار بمدينة بنغازي ، حيث تم نقل ضريحه إلى منطقة سلوق بحجة أن المكان الذي شنق به عمر المختار أولى باحتضان ضريحه .
ومن مظاهر التعسف السياسي أيضاً - منع الدارسين والباحثين من دراسة أمثلة بعينها من الآثار الإسلامية ، لاسيما ما يتعلق بالفترة السنوسية لاسيما الزوايا السنوسية التي كان لها دور كبير في نشر الإسلام وتوطيد أركانه في دواخل ليبيا وأفريقيا .

• مدرس مساعد- كلية الآداب - جامعة بنغازي – ليبيا

وسيتم تناول مثالين من المباني التي تمت إزالتها في فترة حكم النظام السابق هما : زاوية الأمام محمد بن علي السنوسي بواحة الجغبوب ، ومسجد القشلة العثمانية في بنغازي:

١- زاوية الأمام محمد بن علي السنوسي بالجغبوب (١٢٧٢هـ/١٨٥٥م):

تم الشروع في بناء هذه الزاوية في شهر صفر سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م ، واستمر العمل بها عاماً كاملاً ، حيث افتتحها الشيخ السنوسي في شهر ربيع الأول من سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٦م [١]، وقد شرع القائمون على بناء الزاوية في تطبيق ما أوصاهم به السيد ابن السنوسي الذي رسم خريطتها بنفسه [٢] ، وقد تم اختيار موقع مميز للزاوية داخل المدينة ، حيث بنيت على ربوة عالية بحيث تكون مشرفة على كل ما حولها .

كان قوام هذه الزاوية مجمع معماري ضخم (لوحة ١) ، تخطيطها عبارة عن صحن رئيس (لوحة ٢) يحيط به أربعة أروقة ، من بائكات مكونة من عقود مدببة محمولة على أعمدة ودعامات تسير اتجاه أرجلها في اتجاه عمودي وموازي لجدار القبلة ، كما ألحق بها مجموعة من الخلاوي وقاعات الدرس ومصلى ، وقبة كانت بمثابة ضريح دفن به الأمام محمد بن علي السنوسي ، بالإضافة إلى مرافق خدمية ، وكل ذلك كان محاطاً بسور خارجي .

كانت توجد أربع وحدات خارج هذا السور، قوام كل منه صحن صغير تختلف أبعاده من وحدة لأخرى ، تحيط بها ملحقات وقاعات وخلاوي لإقامة وتدريس طلاب الزاوية [٣] ، وإن تفصيلها معماريا ليس الهدف من هذه الدراسة سنقتصر فقط على وصف موجز لأهم مكوناتها الرئيسة كالمصلى والقبة الضريحية .

يوجد بيت الصلاة في هذه الزاوية خلف الرواق الشمالي الغربي المطل على الصحن الرئيس ، وهو مستطيل الشكل (١٢.٥٠×١٧.٥٠م) يحتوي على ستة اساكيب تسير بشكل مواز لجدار القبلة ، تشكلها ست بائكات بكل منها خمسة عقود ترتكز على دعامات مستطيلة الشكل وقصيرة .

أما القبة الضريحية فهي ملاصقة لبيت الصلاة من الجهة الجنوبية ، قوامها مساحة مستطيلة أبعادها (٨.٥٠×١٥.٥٠م) يتوسط هذا المستطيل مربع أقيمت عليه القبة طول ضلعه (٨.٥٠م) ، يتوسط هذا المربع قبر الأمام

---

١ سمير عبد المنعم الشال ، الزوايا والأربطة الليبية في العصر العثماني ، رسالة دكتوراه، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص١٥٣ .

٢ السنوسي يونس بالقاسم ، واحة الجغبوب ودورها في التعليم الديني في ليبيا (١٨٥٥-١٩٢٦م) ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ٢٠١٣م ، ص ٤٠.

٣ سمير عبد المنعم الشال ، المرجع السابق ، ص١٥٤ .

محمد بن علي السنوسي الذي تحيطه مقصورة من النحاس[٤] ، يلي المربع بهذا الضريح رقبة مثمنة فتح بكل ضلع من أضلاعها ثلاث نوافذ تتوجها عقود منكسرة ، ويعلو هذه الرقبة قبة قطاعها على شكل عقد مدبب[٥]، والضريح يخلو من اي زخارف فيما عدا الشرافات التي تزين قمة الرقبة المثمنة (لوحة ٣).

ويبدو أن شكل الزاوية كان بسيطاً منذ بنائها وحتى وفاة الأمام محمد بن علي السنوسي ، وبعد أن تولى ابنه السيد المهدي السنوسي إدارة الحركة السنوسية قام بتجديد زاوية الجغبوب وتمت توسعتها لتكون أكثر استيعابا لأعداد الطلبة المتزايد مع توسع الحركة السنوسية[٦] .

وبعد سقوط نظام الملك إدريس السنوسي ، وقيام نظام القذافي أخذ الأخير يُنظر إلى الحركة السنوسية على أنها حركة سياسية معارضة ، فتم حظر أنشطتها وقفل الزوايا التابعة لها ، فكان من الزوايا التي أقفلت هي زاوية الأمام محمد بن علي السنوسي بواحة الجغبوب ، وظلت الزاوية مغلقة فترة من الزمن ، ثم تم إعادة فتح مسجدها فقط للصلاة ، بيد أن منتسبي هذه الطريقة كانوا يتجمعون سنويا في المسجد للاحتفال بالذكرة السنوية للطريقة، وكانوا يتجمعون بأعداد كبيرة من كل أنحاء ليبيا فاقت أعداد سكان المدينة نفسها ، وهنا قررت السلطة وقتئذ إقفال الزاوية ، ثم صدر أمر بعد ذلك بهدم الزاوية كلياً في عام ١٩٨٤م[٧] ، ولم يتبق شيء من مبانيها .

وهكذا فقد أُزيلت إحدى أهم قلاع العلم في ليبيا ، حيث كانت هذه الزاوية ليست زاوية بالمعنى التقليدي ، بل جامعة كان يأتيها طلاب العلم من شتى أنحاء العالم الإسلامي ، فقد بنى السنوسي الكبير منذ قدومه ليبيا وحتى وفاته اثنتين وعشرين زاوية[٨]، وقد فاق عدد هذه الزوايا ذلك بكثير في عهد من خلفوه ، وكانت الزوايا السنوسية تقوم بتنفيذ الأحكام الشرعية والالتزام بالفضائل وتجنب الرذائل بين الناس ونشر الإسلام ، ونبذ البدع المنتشرة المسلمين ، فضلاً عن دورها التعليمي في تعليم القران والعلوم الشرعية ، وتعليم الطلاب إتقان الحرف والصناعات المختلفة ، وتدريبهم على السلاح وصناعة البارود ، وكذلك دور المصالحة بين القبائل المتنازعة ، وشجعت

---

٤ احمد محمد حسنين ، في صحراء ليبيا ، المجلد الأول ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ص ٦٥ .

٥ سمير عبد المنعم الشال ، المرجع السابق ، ص١٥٨ .

٦ السنوسي يونس بالقاسم ، المرجع السابق ، ص٤٤ .

٧ يوسف عبد الهادي ، صور من حياة إدريس السنوسي ، دار بن شتوان للطباعة ، بنغازي ، ٢٠١١ ، ص٤ .

٨ السنوسي يونس بالقاسم ، المرجع السابق ، ص٢٣٧ .

على الحركة التجارية والزراعية ، ولا يغفل دور هذه الزوايا الجهادي في مواجهة الغزو الفرنسي في وسط أفريقيا ، وقادت الجهاد ضد الغزو الايطالي في ليبيا[٩] .

وكان الطلاب المتميزين يلتحقون بالزاوية الرئيسية في الجغبوب لاستكمال تعليمهم بوصفها منبع العلوم ، حيث ضمت مكتبتها ثماني آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه ، وغير ذلك من العلوم الطبيعية[١٠] ، فضلا عن النخبة من المعلمين والمشايخ .

٢- مسجد القشلة[١١] العثمانية في بنغازي : (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م)

بني هذا المسجد في عام ١٨٨٩م في فترة حكم رشيد باشا الثانية لولاية برقة[١٢] ، وهو يقع جنوبي ثكنة البركة ويبعد عنها مسافة ٢٠٠م ، وعندما قامت السلطات الايطالية عام ١٩١٤م بإضافة الجناحين الشرقي والغربي للجزء التركي من القشلة ، أصبح المبنى على هيئة مربع ينقصه الضلع الرابع ، وكان المسجد يشغل منتصف الضلع الجنوبي الناقص[١٣] .

أما تخطيط المسجد فهو مستطيل الشكل (١٥×٢٥متر) ، يشغل أغلب مساحته بيت صلاة مربع الشكل طول ضلعه (١٥متر) ، يتقدمه رواق يمتد بعرض المسجد وعمقه (٤ أمتار) يطل هذا الرواق على القشلة بخمسة عقود أكبرها أوسطها محمولة بواسطة أعمدة اسطوانية الشكل (لوحة ٤) ، ومن

---

٩ علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا ، ط٥ ، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠١٥م ، ص ٨٥-٨٦ .

١٠ علي محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص٨٥ .

١١ قُشْلَاق أو قِشْلَه جمعها قِشْلَات : كلمة تركية معناها المكان الشتوى ، مكونة من قِشْ بمعنى الشتاء ،وهو اسم مكان يطلق على مسكن العسكر المقيمين بالنواحى والأرياف والأقاليم ، وأمر الولاة بتخصيص أماكن لهم تبنى بالطوب الأحمر، وقد وجد هذا النوع في مصر منها علي سبيل المثال قشلاق القلعة و قشلاق ميدان عابدين ، و قشلاق قصر النيل .

عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق :عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،٢٠٠٣م ،ج ٨ ، ص ٣٩٥.

فتحي علي الساحلي: القشلة العثمانية في نهاية العهد العثماني الثاني وبداية الغزو الإيطالي للإيالة الليبية ١٨٨٢ – ١٩٢٧م ، بنغازي ، ٢٠١٠م ، ص ٥٧.

محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، ص ١٢٤ .

سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات جامعة بنغازي، بنغازي ، ٢٠١٤م ، ص٦٥.

١٢ فتحي علي الساحلي ، القشلة العثمانية ، ص ٩١ .

١٣ عبد الستار محمد الفقيه ، مساجد بنغازي القديمة ، الهيئة العامة للأوقاف ، بنغازي ، ١٩٩٦م ، ص ١٠٧ .

هذا الرواق يتم الولوج إلى البيت الصلاة عبر المدخل الذي يقع في الجدار المقابل لجدار القبلة وعلى نفس محور المحراب ، ورتب على فتحة المدخل باب من الخشب تغشيه زخارف هندسية ونباتية غائرة وبارزة قوامها أطباق نجمية وأهلة [١٤] ، يسقف المسجد ثلاثة أسقف جمالونية تتجه بشكل عمودي على جدار القبلة ، أكثرها اتساعاً وارتفاعاً هو الأوسط .

للمسجد مئذنة تقع في الركن الشمالي الغربي منه ، بنيت على الطراز التركي (لوحة ٥) ، وارتفاعها قرابة ثلاثون متراً ، وهي متصلة ببيت الصلاة ولا تظهر المئذنة إلا ابتداء من سطح المسجد ، وهي تتكون من قاعدة مربعة تتحول عند سطح المسجد الى شكل مثمن ، جزء مضلع يتكون من ستة عشر ضلعاً ، ثم بدن اسطواني الشكل تزينه قنوات طولية غائرة عددها ٣٢ قناة ، ويعلو البدن شرفة دائرية ، ثم رقبة اسطوانية ، ويتوجها من الأعلى قمة مخروطية الشكل على نمط المآذن العثمانية[١٥].

وقد تعرض المسجد للقصف من قبل القوات الإيطالية التي احتلت مدينة بنغازي عام ١٩١١م ، حيث كانت البوارج الايطالية تقوم بقصف مبنى ثكنة البركة ، ونجم عن هذا القصف أضرار بليغة بمبنى المسجد تمثلت في انهيار جزء من سقفه (لوحة ٦)، وعندما استقرت الأمور للقوات الايطالية بالمدينة عام ١٩١٢م تم إعادة ترميم المسجد لاستعماله كمطعم للجنود الايطاليين ، كما قامت بإزالة القمة المخروطية للمئذنة واستبدلتها بجهاز هوائي للاتصالات اللاسلكية[١٦] .

تمت إزالة مسجد القشلة العثمانية في بنغازي في عام ١٩٨٦م ، حيث أن هذا المسجد كان يقع بالقرب من أكثر المعاقل الأمنية أهمية في المدينة ، وهي كتيبة امن بنغازي المعروفة بكتيبة الفضيل بوعمر ، والتي تعد مقر القذافي في بنغازي وتحوي بيته بالمدينة .

كما أن المسجد أيضا كان يطل على الساحة التي تعود القذافي على إلقاء خطاباته فيها حيث تحوي منصة أعدت لهذا الغرض ، وبناءً على ذلك فان مئذنة المسجد كانت تكشف ما يدور بداخل الكتيبة ، كما أنها كانت مرتفعة بحيث كانت تشكل خطرا على حياة رواد الثكنة حسب اعتقادهم ، وهذا أمراً منطقياً خاصة إذا علمنا أن كل العمائر المحيطة بالثكنة منع أصحابها من فتح نوافذ تطل عليها ، كما أن ساكني هذه البيوت كانوا يخشون من اعتلاء أسطحها خوفا من اعتقالهم من قبل قوات الأمن

١٤ فتحي علي الساحلي ، المرجع السابق ، ص ٩١ -٩٢ .

١٥ جمعة المهدي كشبور، المآذن القديمة في مدينة بنغازي، مجلة آثار العرب ، العدد الثاني ، طرابلس ، ١٩٩١م ، ص٨٣.

١٦ عبد الستار محمد الفقيه ، المرجع السابق ، ص١٠٨ .

ثانياً : آثر التطرف الديني :

وقد اتضحت ملامح هذا التطرف بعد ثورة الشعب الليبي في السابع عشر من فبراير عام ٢٠١١م ، حيث ظهرت مجموعة من الجماعات الدينية تدعو إلى هدم وتدمير كل الأضرحة والقباب سواء الملحقة بمباني دينية أو الموجودة في المدافن ، وكذلك لم يميزوا بين الأضرحة الحديثة والأثرية منها كما أنهم لم يميزوا أيضا بين تلك التي بنيت لغرض ديني ، أو التي ينتمي أصحابها إلى أسر حاكمة وليس لها علاقة بالدين .

و يرى هؤلاء إن ذلك من باب منع عبادة القبور والشرك بالله ، ومن أمثلة ذلك لاسيما فيما يتعلق بالمباني الأثرية هدم التربة الملحقة بمسجد احمد باشا القرمانلي بطرابلس، وضريح رشيد باشا الملحق بمسجده الكائن بمدينة بنغازي ، وهدم ضريح السيد عبدالسلام الأسمر بمدينة زليتن ، وآخر تلك الانتهاكات هدم أضرحة بني الخطاب بمدينة زويلة الأثرية ، ثم هدم ضريح أول والي عثماني بطرابلس مراد أغا ، الذي كان يوجد بمسجده القائم بضاحية تاجوراء إحدى ضواحي مدينة طرابلس.

ونحن في هذا البحث لا نناقش رأي الدين والشرع في بناء الأضرحة لأننا لسنا من أهل الاختصاص ، ولكن مناقشتنا من باب أن هذه المباني أثرية ويجب الحفاظ عليها لأنها تعطينا فكرة عن طبيعة وأسلوب ومواد البناء المتبعة في ذلك الوقت ، إلا أن هناك حركة دينية قادها رجال دين في ليبيا أخذت على عاتقها إثبات أن فتوى هدم الأضرحة وتحريم بنائها يمكن مناقشتها في ظل نصوص القران والسنة ، حيث ظهر مؤلف بعنوان "زف البشرى والسرور بنقض فتوى حرمة تعلية البناء وجواز هدم القباب والقبور" ، وقد ناقش الكتاب نص الفتوى التي استند عليها أصحاب الرأي القائل بهدم الأضرحة وتحريم بنائها ، محاولاً إيجاد نصوص من القران والسنة يفهم منها جواز الإبقاء على تلك الأضرحة[١٧] .

والأضرحة في ليبيا نوعان، الأول أضرحة لأصحابها صفة دينية ، كمشايخ الطرق الصوفية أو الأولياء والمرابطين ، حيث اشتهر ساكنيها بصلاحهم في دنياهم ، أو ظهرت لهم كرامات جعلت الناس يعتقدون بصلاحهم ، فبنوا لهم أضرحة يقصدونها في المناسبات والأعياد للصلاة والتبرك ، كضريح الشيخ عبد السلام الأسمر بمدينة زليتن[١٨]، وهذه الأضرحة منها ما هو ملحق بزاوية، او أضرحة مستقلة بنيت وسط مزارع الزيتون وبساتين النخيل ،

---

١٧ حسين علي اليدري ، زف البشرى والسرور بنقض فتوى حرمة تعلية البناء وجواز هدم القباب والقبور ، مؤسسة دار العلوم للنشر والطباعة ، بنغازي ، ٢٠١٢م ، ص٧ .

١٨ سعدي الدراجي، المرجع السابق ، ص١٥٩.

حيث جرت العادة بعد موت المرابط أن يدفن في وسط مزرعته فتشاد على قبره قبة ، أو يدفن في بيته وفي بعض الأحيان يلحق بالضريح مسجد ودار للضيافة لإيواء الزوار الغرباء وتزود بعض الأضرحة بمصلى للجنائز لأن المكان يصبح بمرور الزمن مقبرة يدفن فيها أهل المنطقة موتاهم تيمنا بصاحبها فضلاً عن بعض المرافق الخدمية الأخرى[١٩].

ومعظم أضرحة المرابطين في ليبيا قوامها حجرة صغيرة مربعة الشكل تعلوها قبة نصف كروية مبنية بالحجارة غير المنحوتة والجص. وجميعها يخلو من مظاهر الزينة باستثناء الدهان ذي اللون الأخضر الذي تطلى به بعض القباب من الداخل وبعضها الآخر من الخارج أيضاً ، وأمثله ذلك النوع لا يحدها الحصر قديما وحديثا ، حيث ذكر عبدالسلام بن عثمان الطرابلسي صاحب كتاب "الإشارات لبعض ما في طرابلس الغرب من مزارات" الذي فرغ من كتابته عام ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م[٢٠] وأحصى به أكثر من ٣٨٠ ضريح فقط في الشريط الساحلي الممتد بين طرابلس ومصراته .

أما النوع الثاني من الأضرحة في ليبيا فهي تلك المخصصة لدفن الولاة أو أفراد الأسر الحاكمة ، وعادة ما تكون ملحقة بمنشئات أو مجمعات دينية كبيرة ، حيث جرت العادة أن يبني أحد الولاة مسجداً ويوصي بعد موته أن يدفن هو وأفراد عائلته بهذا المسجد ، وقد شاع هذا النوع في ليبيا بعد مجيء العثمانيين، ولاسيما مدينة طرابلس التي حوت العديد من أمثلة تلك الأضرحة[٢١] ، والتي من أقدمها ضريح مراد آغا المشيد في منتصف القرن السادس عشر الميلادي في تاجوراء، وضريح درغوث باشا ، واحمد باشا القرة مانلي ، وضريح مصطفى قورجي ، وغيرها .

وهناك نوع آخر من الأضرحة العثمانية لا تكون ملحقة بمساجد أو مدارس ، وهي الأضرحة المنفردة ، حيث توجد قائمة بذاتها ، يتم اختيار موقعها في مكان متميز من المدينة أو أنها تكون ضمن جبانة المدينة ، ومن أحسن أمثلة هذا النوع تلك الأضرحة الخاصة بالأسرة القرة مانلية في طرابلس ، وقوامها حجرتان متشابهتان ، يعلو كل منهما قبة نصف كروية ، تقوم على رقبة مثمنة. وقد شغلت زوايا القاعدة المربعة من الأعلى بمقرنصات على شكل حنايا تشبه الأصداف البحرية ، وزينت الحجرتان من الداخل بزخارف جصية متنوعة[٢٢].

---

١٩ سعدي الدراجي ، المرجع نفسه ، ص١٦١ -١٦٢ .

٢٠ عبد السلام بن عثمان التاجوري الطرابلسي ، الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من مزارات ، مكتبة النجاح ، طرابلس ، (د.ت).

٢١ سعدي الدراجي ، المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

٢٢غاسبري ميسانا ، المرجع السابق ، ص ٢٢٩.

الأسلوب المتبع في الهدم :

كما ذكرنا سالفاً فان الحملة الشرسة لهدم الأضرحة نالت من السواد الأعظم لهذه الأضرحة ، وقد كانت عملية الهدم أما بشكل مباشر عن طريق جرافات تأتي لموقع الضريح وتقوم بهدمه بعد أن يتم نقل الرفات إلى قبور مجهولة في المقابر الحديثة او يدويا باستخدام المعاول ، وهذا في الأماكن التي لا يجد بها هؤلاء معارضة من أهالي المنطقة أو من خلال رواد الطريقة التي ينتسب إليها هذا الولي .

وفي أحياناً أخرى يكون صاحب الضريح ينتمي إلى عائلة أو قبيلة تسكن بجوار مقامه ، ويكون أحفاد صاحب الضريح وسلالته لازالت باقية ، فهنا تكمن المشكلة ، حيث لا يقدر نابشي القبور على هدمها لان أهل الضريح يقومون بحراسته ويمكن أن يحدث شجار بين الفريقين ، وهنا يلجأ هادمي القبور إلى إحدى طريقتين ، أما أن يأتوا خلسة في أوقات لا يوجد بها احد كساعات الليل المتأخرة ، وان لم يكن فلا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق التفجير ، حيث تزرع عبوات ناسفة في الضريح ومن ثم يتم تفجيرها عن بعد.

وفي أحيانا نادرة يتم استهداف الأضرحة عن بعد بواسطة الأسلحة الثقيلة ، وقد حدث ذلك عند قصف ضريح السيدة عائشة في مدينة تاورغاء ، حيث تم تداول مقطع فيديو يوضح عملية القصف.

وفي هذه الدراسة سيتم تناول اثنين من الأضرحة كمثال للتطرف الديني وأثره على الآثار الإسلامية في ليبيا ، المثال الأول أضرحة بني الخطاب بمدينة زويلة ، والمثال الثاني ضريح رشيد باشا بمسجده بمدينة بنغازي .

أضرحة بني الخطاب بزويلة[٢٣]:

تعد أضرحة بني الخطاب بزويلة أقدم الأضرحة الإسلامية في ليبيا، ، وهي تعود إلى أسرة بني الخطاب التي حكمت فزان منذ أوائل القرن الرابع الهجري إلى القرن السادس الهجري.

ويبلغ عددها سبعة أضرحة [٢٤] ، و تتميز بأنها مبنية على شكل خطٍ واحد يمتد من الشمال إلى الجنوب. قوام كل ضريح منها حجرة مربعة ترتفع بمقدار سبعة أمتار تقريباً من الأرض وحتى قاعدة القبة ، يعلو كل منها قبة نصف كروية صغيرة مبنية بالحجارة والطين[٢٥] ، فتحت بكل منها عدداً من النوافذ وزعت على مستويين أفقيين توحي لناظرها من الخارج وكأن الضريح يتكون من طابقين رغم انه في الحقيقة عبارة عن حجرة واحدة مرتفعة الجدران (لوحة ٧).

بنيت هذه الأضرحة بألواح رفيعة من الحجارة التي رصت بشكل أفقي على هيئة مداميك ، واستعمل كمونة رابطة ، ولحماية الأضرحة من الخارج ، ولإضفاء شكل جمالي على الجدران الخارجية أيضاً - قام المعمار بكسوتها

---

٢٣ وتسمى بزويلة السودان تميزاً لها عن مدينة زويلة التي بناها الفاطميون قرب المهدية، وتقع في الصحراء جنوب شرق مدينة سبها بمقدار ١٦٠ كم. وهي قديمة فتحها عقبة بن نافع سنة ٢٢هـ ، وقد أصبح لزويلة شأناً عظيماً في ظل أسرة بني الخطاب بوصفها أهم مراكز التجارة لوقوعها بين ملتقى الطرق الصحراوية المهمة. وقد وصف البكري مساجدها وأسواقها ومنازلها وعدها من المدن المهمة.

البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد ، (د.ت) ، ص ١٠-١١.

أما ياقوت الحموي فيقول عن زويلة "بفتح أوله وكسر ثانيه بلدان أحدهما زويلة السودان مقابل اجدابيا في البر بين بلاد السودان وإفريقية ، وهي مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وكانت مشهورة بجلب الرقيق إلى ناحية إفريقية . والأخرى زويلة المهدية وهي مدينة بإفريقية بناها المهدي بن عبيد الله الفاطمي وبينها وبين مدينة المهدية رمية سهم فقط.

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، الجزء الثالث، دار الكتب العلمية ، بيروت،(د.ت) ص ١٧٩-١٨٠.

٢٤الغريب في الأمر أن النقيب لايون الذي قام برحلة إلى مرزق بدأت في شهر مارس من عام ١٨١٩م ، وزار فيها مدينة زويلة ، يذكر أن عدد هذه الأضرحة خمسة فقط ، فربما يكون الضريحين الآخرين كانا قد تهدما ثم أعيد بنائهما بعد زيارة النقيب لايون ، لاسيما وان هذه الأضرحة رممت في ثمانينيات القرن الماضي حيث كان الضريح السابع منهار ثم أعيد بنائه . النقيب ع . ف . لايون ، مدخل إلى الصحراء ، ترجمة الهادي مصطفى أبولقمة ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٩٩٣م ، ص١٢٠.

٢٥ غاسبري ميسانا، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق حسنين، الناشر الدكتور مصطفى العجيلي ، طرابلس ١٩٧٣م ، ص ٢٢٦.

بألواح حجرية رفيعة تشبه تلك المستخدمة في بناء الأضرحة[٢٦] ، بيد أنها وضعت بشكل راسي ، وهي بذلك توحي كأنها مبنية من كتل حجرية ضخمة (لوحة ٨).

أما بخصوص سقف هذه الأضرحة فقوام كل منها قبة قطاعها على هيئة عقد نصف دائري ، بنيت بمداميك تشبه مداميك جدرانها ، ومناطق انتقالها عبارة عن مثلثات كروية ، والملاحظ على هذه القباب كما يذكر المعماري الإيطالي ميسانا ، أنها بنيت بطريق محلية ينقصها الإتقان وربما يعزو ذلك إلى مادة البناء المتوفرة وقلة الإمكانيات التي تساعد البنائين على تشذيب الحجارة المستعملة في بناء الأضرحة ، كما أنها لم تكس من الخارج بطبقة من الملاط لحمايتها من مياه الأمطار ، وربما يكون ذلك هو السبب في انهيار بعض هذه القباب ، أو انهيار أجزاء من بعضها الآخر .

أما فيما يخص الزخارف فلا أثر لها في هذه المقابر سواء من الخارج أو الداخل ، باستثناء بعض النقوش الكتابية التي كشفت عنها أعمال التنقيب التي أجرتها مصلحة الآثار بجامع زويلة وعمل بعض المجسات بالقرب من الأضرحة[٢٧].

وتم تفجير هذه الأضرحة بتاريخ ٢٩/سبتمبر/٢٠١٣م[٢٨] ، وبفقدان هذه الأضرحة فقدت ليبيا جزءاً مهماً من تراثها المعماري ، الذي لطالما كان شاهدا على عراقتها وأصالتها ، وضاع في التو والحال بلا رجعة آخذاً معه حلقة مهمة من حلقات التراث المعماري .

٢- ضريح رشيد باشا في مدينة بنغازي

رشيد باشا أو الحاج رشيد كما يذكره اغلب من كتبوا عن تاريخه وكما دون على شاهد قبره - ضابطاً في الجيش العثماني ، وكان يشغل وظيفة مهمة في الجيش العثماني حيث كان ميرميران[٢٩] ، وقد تولى الحكم في برقة عام ١٨٨٢م خلفاً للوالي علي كمالي باشا[٣٠]، واستمر بالولاية حتى عام ١٨٨٥م، وقد تولى رشيد باشا الحكم مرة ثانية فترة من الزمن امتدت من ١٨٨٩-

---

٢٦ ميسانا، المرجع نفسه، ص٢٢٧- ٢٢٨.

٢٧ عبد الحميد عبد السيد ، وآخرون ، حفريات مسجد زويلة، مجلة ليبيا القديمة، المجلدين الخامس عشر والسادس عشر : (١٩٧٨- ١٩٧٩) ص ٦٦.

٢٨ نقلاً عن وكالة أنباء التضامن الليبية .

٢٩ كلمة فارسية ، تعني بالعربية أمير الأمراء ، وتقابل بالتركية لقب بكلر بكي .
مصطفى بركات ، الألقاب والوظائف العثمانية ، دراسة في تطور الألقاب والوظائف منذ الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات (١٥١٧-١٩٢٤م) ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص ٦٥.

٣٠ محمد مصطفى بازامه ، بنغازي متصرفليك، تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني، دار الحوار الثقافي العربي الأوروبي، قبرص(١٩٩٤) ج٣، ص٣٣٧.

١٨٩٣م[٣١]، خلفاً للمتصرف حسن تحسين باشا ، بيد أن ولاية برقة في هذا الوقت تراجعت إلى متصرفية بعد أن كانت ولاية ، ولكنها مرتبطة مباشرة بالباب العالي ، وقد ترقى رشيد باشا حينئذ من رتبة أمر لواء إلى رتبة فريق[٣٢] .

بني جامع رشيد باشا في عام ١٨٨٥م ، وكان بموضع هذا المسجد مسجد قديم صغير كان يعرف بمسجد بو قلاز الذي تأسس عام ١٧٤٠م[٣٣] ، وقد عرف المسجد بهذا الاسم نسبة لمؤسسه الأول بوقلاز البرغوثي ، وهذا المسجد يعد احد نموذجين فقط في ليبيا بنيا على الطريقة العثمانية المسقفة بنظام القبة المركزية ، حيث يتكون هذا المسجد من قاعة فسيحة يتوسطها أربعة دعائم ضخمة ، تشكل مساحة مربعة طول ضلعها ستة أمتار ، وهذه الدعامات تحمل أربعة عقود نصف دائرية تحمل بدورها قبة مركزية قطاعها على هيئة عقد نصف دائري (شكل ١) ، وهو بذلك يشترك مع الجامع العتيق الموجود بمدينة بنغازي أيضا[٣٤] ، وسقفت باقي المساحة المتبقية من قاعة الصلاة بقبيبات وأقبية صغيرة وضحلة .

وألحق بالمسجد عدداً من المحال التجارية أوقفت عليه. كما الحق به أيضا قبراً أعده رشيد باشا لنفسه وأوصى أن يدفن فيه بعد موته.

الوصف المعماري للضريح :

الضريح عبارة عن حجرة صغيرة مستطيلة الشكل أبعادها (١٩٠×٢٤٠ سم) تقع في أقصى شمال الرواق الذي يتقدم بيت الصلاة (شكل ١)، لها فتحتان الأولى عبارة عن المدخل المؤدي للضريح والذي ينفتح على الرواق الذي يتقدم بيت الصلاة ، وأبعاده (٩٠×١٩٠ سم) ، والفتحة الثانية هي عبارة عن نافذة تطل على داخل بيت الصلاة يغشيها شبكة من قضبان الحديد للحماية أبعادها (١١٥×١٨٠سم)

تحوي حجرة الضريح قبران متجاوران خصص الغربي لرشيد باشا ، وقوامه تركيبة مستطيلة من الرخام الرمادي اللون ارتفاعها قرابة المتر ، يعلوه شاهدا قبر احدهما أمامي والأخر خلفي على الطريقة العثمانية ، حيث جاءت الشواهد اسطوانية الشكل ، ارتفاع كل منهما (١٦٠ سم) وقطره (٣٠سم) .

٣١- محمد مصطفى بازامه ، المرجع نفسه ، ص ٣٦٨

٣٢ محمد مصطفى بازامه ، المرجع نفسه ، ص٣٦٩.

٣٣ الأب فرانشيسكو روفيري، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية، التاريخ الكرونولوجي لبرقة(١٥٥١- ١٩١١م)، ترجمة إبراهيم احمد المهدوي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس٢٠٠٣م ، ص١٥٨.

٣٤ غاسبري ميسانا ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

سجل على كل منها كتابات باللغة التركية فحواها عبارات دعائية لرشيد باشا وتذكير بأفضاله وخدماته الجليلة التي قدمها لولاية برقة ، كما يتضمن كل من الشاهدين تاريخا لوفاه رشيد باشا ، مرة بالتقويم الهجري وأخرى بالتقويم المالي للدولة العثمانية[٣٥] (لوحة ١١)، كما أن الشاهدين ازدانا ببعض الزخارف قوامها مجموعة من أوراق الأكانتس (شوكة اليهود) نحتت بشكل بارزاً أسفل الشاهدين ، ويزدان الشاهد الأمامي من أعلى بشعار ربما يمثل رتبة الفريق الحاج رشيد باشا(لوحة ٩).

أما عن الكتابات التي تضمنتها شواهد القبر فهي مكتوبة بخط الثلث ، وبحروف بارزة جاءت في عشرة اسطر لكل شاهد ، بيد أن هذه الأسطر كانت منفصلة عن بعضا البعض بواسطة اطر محفورة حيث أن كل سطر كان على شكل شريط بارز بيضاوي الشكل ، وقد نشر في موسوعة العمارة الإسلامية ترجمة لهذه الكتابات ، قام بها الأستاذ جمال الدين الداغستاني من سوريا[٣٦] ، بيانها كالتالي :

نص الشاهد الأول	نص الشاهد الثاني
١- هذه حصاد حياة فانية.	١- الباقي هو الله.
٢- الموت دواء ناجح.	٢- خدمات جليلة قدمها لوطنه.
٣- للبشرية كالحمل المتحجر.	٣- فقيد بنغازي.
4 – لقد هم بالحياة وبذل.	٤- قضى فيها قائدها ومتصرفها أكثر من مرة
٥- للبقاء وبهذا الأمل.	٥- انتقل إلى مثواه الأخير مخلد.
٦- أمل الحياة حزني وأسفي على.	٦- ذكرى مصداقه عمر وحياة.
٧- ساكن هذه الروضة.	٧- هنا المرقد الأخير للحاج الفريق.
٨- رشيد باشا.	٨- رشيد باشا إلى روحه.
٩- في ٤ شعبان ١٣١٠هـ.	٩- الزكية الفاتحة.
١٠- يوم الثلاثاء.	١٠- في شباط (فبراير) سنة ١٣٠٨ يوم الثلاثاء.

وفي يوم الخميس الموافق العاشر من شهر ربيع الأول سنة ١٤٣٣هـ ، الثاني من فبراير سنة ٢٠١٢م قامت مجموعة من الشباب بنبش قبر رشيد باشا ونقلت رفاته إلى مقبرة الهواري ، وهدم بذلك الضريح ، ورميت

٣٥ جمعة المهدي كشبور، مراجعة نقدية لكتاب "مساجد بنغازي القديمة" ، مجلة الثقافة العربية، العدد الخامس ، السنة ٢٧، مايو ، ١٩٩٩م ، ص ٣٦.

٣٦ مسعود رمضان شقلوف وآخرون، موسوعة الآثار الإسلامية في ليبيا ، ج١ ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ١٩٨٠م ، ص٢٨٦-٢٨٧.

الشواهد على الأرض (لوحة ١٠)، وظلت هكذا حتى قامت مراقبة آثار بنغازي بقلها إلى مخزن المصلحة ، وهي مازالت بحالة جيدة ولم تتعرض للكسر.

الخاتمة والتوصيات:

ناقش البحث إشكالية مهمة تعرض لها التراث المعماري الإسلامي في ليبيا ، ممثلا في هدم مجموعة من الأضرحة والزوايا الأثرية ، والتي تم هدمها وإزالتها بشكل متعمد وبطرق مختلفة ، تفتقد إلى معرفة القيمة التاريخية الحقيقية التي تمثلها هذه الآثار ، مما أدى إلى فقدان جزاء مهم من العمائر الأثرية في ليبيا . وفي الختام يوصي البحث بالنقاط التالية :-

١. نشر الوعي الأثري بين طبقات الشعب الليبي عن طريق التوعية الثقافية بأهمية وقيمة التراث المعماري المتبقي في مدنها وقراها .

٢. تكثيف حملات التوعية الدينية لنشر الإسلام الوسطي فيما يخص قبور وأضرحة الأولياء ، ومحاولة عقد مناقشات مع أصحاب الرأي القائل بهدم الأضرحة ومحاورتهم .

٣. مخاطبة اليونسكو والمكتبات الايطالية التي تحتفظ بصور ومخططات هذه المباني إن وجدت ، وإمداد الجهات المعنية في ليبيا بهذه الوثائق تمهيدا لإعادة بنائها من جديد طبقا لأصولها المعمارية والفنية .

٤. المحافظة على ما تبقى من أثار وذلك من خلال تكثيف دوريات الحراسة على هذه المباني وتسويرها ، وترميم التالف منها ، القيام بالتوثيق الأثري والتسجيل الفني للآثار الباقية من خلال تصويرها فوتوغرافيا ورفعها معماريا وإعداد المساقط اللازمة لها ، والقيام بمسح اثري شامل في المواقع الأثرية الليبية ، وتضمين ذلك داخل موسوعات متخصصة يشرف عليها أكاديميون متخصصون في العمارة والفنون الإسلامية في الجامعات الليبية .

الأشكال و اللوحات

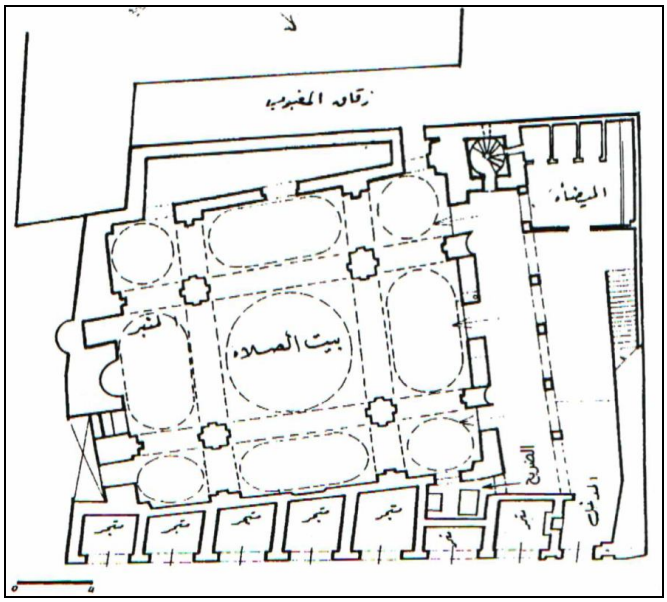

(شكل ١) جامع رشيد باشا في بنغازي:المسقط الأفقي للدور الأرضي (عن – عبد الستار الفقية)

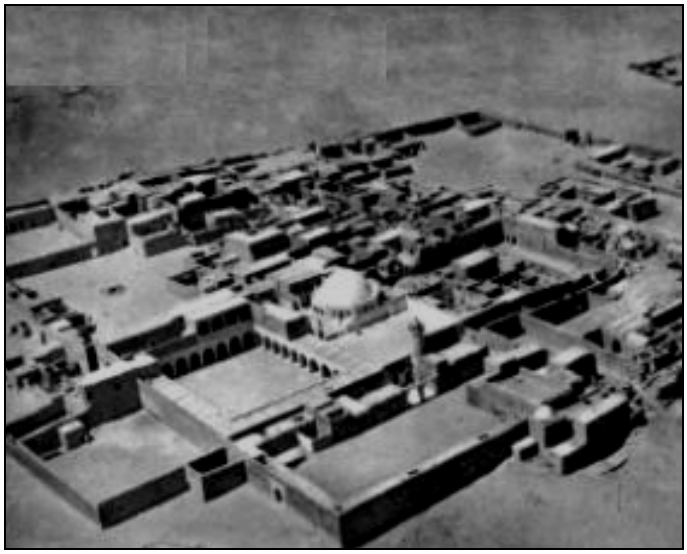

(لوحة١) الزاوية السنوسية : تصوير جوي ١٩٢٦م

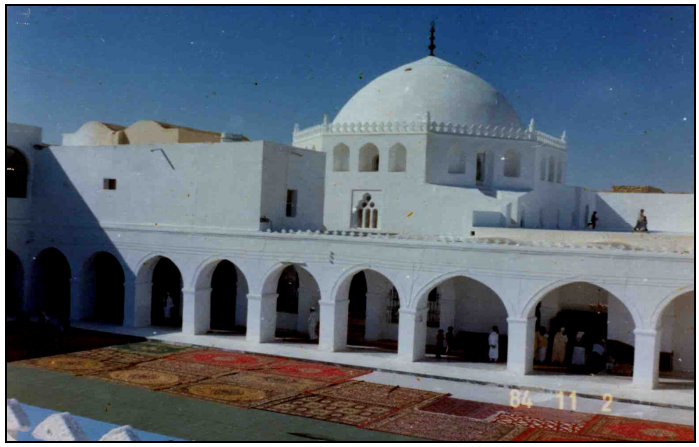

(لوحة ٢) الزاوية السنوسية (بالجغبوب):الصحن والأروقة

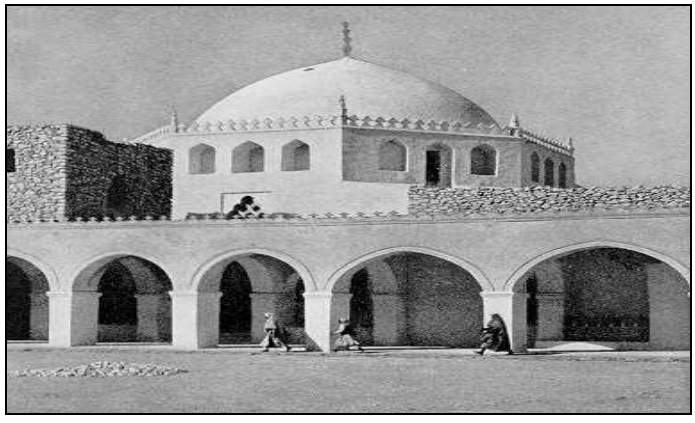

(لوحة ٣) الزاوية السنوسية (بالجغبوب): الضريح والأروقة

(لوحة ٤) جامع القشلة العثمانية بنغازي

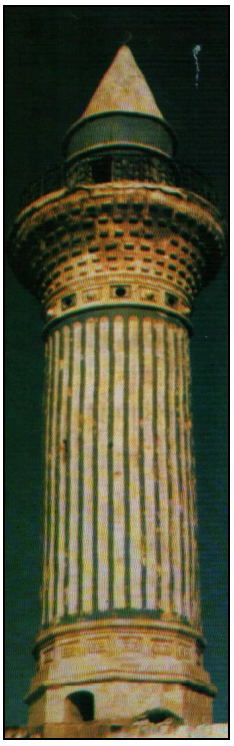

(لوحة ٥) مئذنة جامع القشلة العثمانية (لوحة ٦) جامع القشلة العثمانية

(لوحة ٧) اضرحة بني الخطاب بزويلة

(لوحة٨) اضرحة بني الخطاب بزويلة (عن – ميسانا)

(لوحة٩) ضريح رشيد باشا : شاهدا القبر قبل الهدم (لوحة١٠)الشاهدين بعد هدم الضريح

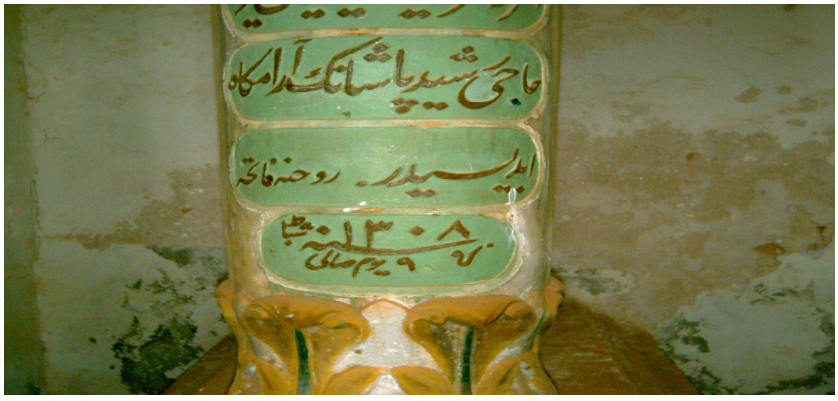

(لوحة١١) ضريح رشيد باشا : التاريخ المالي للدولة العثمانية المدون على الشاهد